

إمارة طليطلة في عهد يحيى القادر بالله

(1085-1074 / 478 -467)

د. بوخاري عمر

جامعة ابن خلدون/ تيارت

الملخص :

تتلخص الدراسة حول الفصول الأخيرة لمملكة طليطلة ، وهي أسوأ مرحلة عرفت أيام حُكم يحيى القادر بالله ، إبتدأها بالقضاء على رجالات دولته ، من الذين ساسوها بحنكة وإقتدار ، أيام المأمون بن ذي النون ، وزاد الأمر سوءاً ، عندما فتح الباب على مصرعيه أمام النصارى بقيادة ألفونسو الذي كان وراء معظم المؤامرات التي حيكت ضدّ مملكة طليطلة ، كلّ ذلك كان يحدث ، والقادر دائب في المهادنة ، وتجديد العلاقة ، لا يدري ما يراد بمملكته ، إلى أن حلّت الكارثة ، ودخلت قوات ألفونسو دون مقاومة أهلها ، وإنثلم جزء مهم من بلاد الاسلام في الاندلس ، كان بداية لسلسلة الإقتطاعات التي أتت على سائر بلاد الاسلام في شبه جزيرة إيبيريا .

Abstract:

The study of the final chapters of the Kingdom of Toledo, the worst stage of the days of the reign of Yahya al-Qadir Allah, began with the elimination of the men of his state, who were wise and competent in the days of Al-Ma'mun Bin Al-Nun. Alfonso, who was behind most of the conspiracies that were waged against the Kingdom of Toledo, all this was happening, and capable of constant appeasement, renewal of the relationship, does not know what is meant by his kingdom, until the disaster resolved, and entered the forces of Alfonso without resistance of its people, Andalus, was the beginning of the E-series deductions that brought Islam to the rest of the country in the semi-Iberia Peninsula

الكلمات المفتاحية: إمارة/ طليطلة/ عهد/ يحيى القادر بالله.

مقدمة:

بوفاة المأمون بن ذي النون أسدل الستار عن حقبة هامة من تاريخ مملكة طليطلة ، حقبة امتلأت سماؤها ضجيجا وحركة ، كان المأمون أحد صانعيها ، وكان بذلك أعظم ملوك الطوائف وأطولهم عهداً إذ حكم ثلاثة وثلاثين عاما ، دأب خلالها في توسيع مملكته إلى أن صارت مترامية الأطراف تمتد شرقا إلى أقاصي بلنسية ، وازدهرت وعمها الرخاء ، وجمع المأمون ثروات طائلة ، وشيد بعاصمتها قصورا باذخة إشتهرت في ذلك العصر بروعتها وفخامتها . وفضلاً عن كونه محارباً ، خاض العديد من الوقائع إلا أنه مع ذلك رجل سمت همته إلى العناية برعيته حيث أقام العدل ، واهتم بالإدارة ونظمها وقسم المهام والوظائف وجلب كبار الرجال والعلماء واستخدمهم لديه ، ونظرا لما كان يتمتع بلاط المأمون من سمعة طيبة ، وبحسب رعاية واحتفاء للعلماء فقد قصد طليطلة في عهده العديد من الأعلام كأبي عيسى بن ليون ، وابن سفيان ، وأبو عامر بن الفرج ، والحاج ابن محفور ، وأبو المطرف بن مثنى وابن الحديدي ، وكانت هذه الرعاية ولاشك نابعة من التقاليد التي سنها حكام طليطلة قبله من أبائه وأجداده . ظلت مملكة طليطلة على هذه الحال من السؤدد والمهابة ، إلى أن أفل نجم هذا الأمير الفذ ، فدخلت المملكة في مرحلة حرجة ، بين سلطة ضعيفة ، مترهلة ، وتهديدات متواصلة من جيرانها من ملوك الطوائف ، من جهة ، وضربات النصراري بقيادة ألفونسو السادس ، من جهة أخرى ، هذا ما سنحاول معالجته في هذا البحث .

أولا: يحيى القادر بالله وحادثة مقتل ابن الحديدي :

توفي المأمون بن ذي النون - 467 هـ / 1074 وخلفه حفيده يحيى بن ذي النون الملقب بالقادر لكون المأمون لم يكن له ولد ، فقد توفي أولاده قبل وفاته ومن هؤلاء هشام⁽¹⁾ الذي قضى قبل وفاة والده ، إلا أن الحاكم الجديد لم يكن على شاكلة جده في الحزم ، والرؤية ، ولم يذكر إلا بصفات الضعف والهوان وقلة المعرفة ، وسوء التدبير ، وضعف الشخصية⁽²⁾ ، وصفه ابن الكردبوس بقوله: " وكان ضعيف المنة قليل المعرفة ، ربي في أحجار النساء والدايات ونشأ بين الخصيان والغانيات ، فملك أمره العيب ، وحكم عليه كل خصي ومولود ، كل يدبر ملكه على إرادته ، وينفر بوزارته ، فطمع في بلاده الرؤساء واحتقره القرباء والغرباء"⁽³⁾ .

كان ابن الحديدي رجل الدولة الذي أدار سياستها الداخلية والخارجية بكفاءة وإقتدار إلا أنّ الأمير الجديد ، لم يقدر هذا الامتياز ، وعبث بقيمة الرجل ، عندما وقع في شباك خاصته الذين كانوا يسعون إليه في حق ابن الحديدي ، ويحرضونه عليه ، ويقنعونهم بأنه لا يمكن أن يدير حكم البلاد بصورة حقيقية إلا بالتخلص من ابن الحديدي ، وعصّد هؤلاء تلك الزمرة التي كان ابن الحديدي قد أوعز إلى المأمون بعزلهم ، فرأى القادر عندما استقر لديه الأمر ضرورة التخلص من ابن الحديدي ، وعمد إلى تدبير المؤامرة ، بعد إطلاق سراح خصوم ابن الحديدي ، واتفق معهم على اغتياله داخل قصره.⁽⁴⁾

لقد اح دثت هذه الجريمة بأبعادها وانعكاساتها على الوضع الداخلي مرحلة خطيرة من تاريخ هذه الإمارة ، فعلى الصعيد الداخلي ، فقد انقسم السكان إلى حزبين متعاديين ، كانا مرشحين أن يدخل

البلاد في حرب أهلية مدمرة، وكان ابن الحديدي بما أوتي من حسن التدبير في نظر العلماء مغلقاً للأزمات والاضطرابات ومفتاحاً لكل بادرة للهدوء والسلام في البلاد ، وبالفعل فقد انفتحت بعد مقتله أبواب الدسائس والمؤامرات التي كان يسعى إلى تحقيقها مجموعة من الأرسطقراطييين، لتمرير مشاريعهم، وصيانة مصالحهم الشخصية.⁽⁵⁾

وفي حقيقة الأمر فإن الدولة الذنونية، فقدت بمقتل ابن الحديدي رجلاً من أفضل رجالات السياسة في طليطلة، ورأساً من رؤوسها المدبرة في الزياد عن حياضها ، أيام المأمون جد القادر، الذي وضع تدبير شؤون البلاد في يده لما كان يلمسه فيه من عبقرية ومهارة في حل المعضلات، فأوكل إليه العديد من المهام يصفه ابن بسام بقوله : "... وبقيّة الإصدار والإيراد، والنظر لجماهير الناس وكواف البلاد، والرأي المشورة، والصغيرة والكبيرة، إلى الفقيه أبي بكر بن الحديدي".⁽⁶⁾ ليس هذا فحسب بل أقدم المأمون قبل وفاته بتوثيق هذه الصلة. وألحاح على حفيده بضرورة الاعتماد على ابن الحديدي وأن يشد عليه بكلتا يديه، ولا يقطع أمراً صغيراً أو كبيراً إلا بمشورته، كما أخذ موثقاً على ابن الحديدي على شد أزر حفيده، وألا يتوان في معاضدته والوقوف إلى جانبه⁽⁷⁾ وعليه فإن غياب هذا الوزير المفاجئ وقد صرّ الأمور العامة للإمارة في يد ملك ضعيف، سفيه الرأي، لا يحسن إدارة البلاد، يخصي قدر رجالاته من عظماء الدولة الذين كان لهم قصب السبق في بناء صرح هذه الإمارة.

وفي الوقت نفسه فسح المجال لتلك الطبقة من الأرسطقراطيين تعبت لمصالح الإمارة، و أطلق الحبل على غاربه بعد ذلك لظهور الخلافات الداخلية التي احتدمت مباشرة بعد مقتل ابن الحديدي الأمر الذي حرك أطماع الدويلات المجاورة، التي كانت في انتظار الفرص للانقضاض على حدود طليطلة واقتطاع أجزاء رقعته.⁽⁸⁾

وكانت أولى نتائج هذه السياسية الخرقاء، التي انتهجها القادر بن ذي النون، هي انفصال بلنسية عن المملكة، وذلك حين أعلن أبو بكر بن عبد العزيز⁽⁹⁾ استقلاله بنفسه ، وحتى يعزز ابن هود الانفصال، خطب ابن هود ابنة أبي بكر، ولم يكن يرمي أمير سرقسطة في حقيقة الأمر، إلا ضمها حين يكون ذلك ممكناً، إلا أنه لم ينجح في ذلك فقد ظل أبو بكر عبد العزيز حاكماً عليها إلى حين وفاته 478هـ/1085م⁽¹⁰⁾. نجح ابن هود في عزل بلنسية عن مملكة طليطلة، وضمّن ذلك بتوقيع عقد تحالف معه، إضافة إلى ما سعى إليه من مصاهرته في توثيق هذه الرابطة⁽¹¹⁾. وفي هذه الأثناء كان القادر يمر بفترة عصبية، واضطرابات في جميع أجهزة الدولة ، إلى جانب الاضطرابات الداخلية التي إفتتح لها أعداء بن الحديدي ، وإثارة القلاقل في وجه يحيى القادر بغرض الإطاحة بحكمه، ومما زاد في تفاقم الأوضاع استعانة ابن هود بالقوات الإسبانية لينتزع منه مدينة شنترية، أما مصير مدينة قونقة⁽¹²⁾، فقد اشتد عليها الحصار حتى كاد أهلها أن يهلكوا عطشا وكادت أن تسقط في يد سانشوراميرا ملك أراجون لولا أن افتداها أهلها بمبلغ كبير من المال.⁽¹³⁾ وعبثاً راح القادر بن ذي النون يطلب الفريقين للمناجزة ، وذلك حين بعث إليهم بشير الفتى على رأس كتيبة وأمره بطرد الغزاة عسى أن يحافظ بذلك على ماء الوجه، إلا أن ذلك لم يفد في طائل إذ ما لبث أن انسحب الفريقان، بنو هود من الأرغونيين، يحملون وافر الغنائم واستغنوا عن المواجهة، التي لم تهدمهم إلا الوقت.⁽¹⁴⁾

أدرك سكان طليطلة أن مصيرهم ماض إلى المجهول، وأن أوضاعهم تزداد سوء يوماً بعد يوم، فانتابت أعيانهم من الوطنين، ومن ألمهم اغتيال ابن الحديدي. وزاد في الأمر سوءاً حين قامت في طليطلة في إحدى الليالي، ضجة وصيحة، على حد قول ابن الكرد بوس، حيث قام العامة بقتل الفقيه أبي بكر بن الحديدي، ونهبت ديار الأعيان، فكتب القادر إلى ألفونسو السادس، ولما كان هذا الأخير يدرك أن طليطلة تصعد أنفسها، وأنها في النزاع الأخير من حياتها، أراد أن يأتي على ما تبقى في خزينة القادر من أموال، لذلك وافق على تقديم المساعدة مقابل أموال ضخمة يؤديها إليه، وكان ألفونسو قد أبلغه إن هو امتنع عن دفع المبلغ فسوف يتركه عرضة لأعدائه، وكان ألفونسو أكثر ما يتمناه هو أن تقع الفتنة بين المسلمين يقول ابن الكرد بوس: "وكان أسر شيء عنه الفنش - الفونسو - فتنة تقع بين الولاة من المسلمين فيعين هذا على هذا، وهذا على هذا، فيستجلب بذلك أموالهم، طمعا منه أن يعجزوا، فيظفر هو بملك الجزيرة كلها".⁽¹⁵⁾ فلما عجز القادر عن دفع الأموال، توجه إلى أعيان المدينة لكنهم رفضوا تقديم هذه الأموال فهددهم بتسليم أبنائهم لألفونسو، وما جاء في تهديده لهم: "أقسم لئن لم تحضروني هذا المال الذي طلب في الحين، لأجعلن عنده رهنا جميع من عندكم من العيال والبنين"⁽¹⁶⁾ استهجن الحاضرون من الأعيان تهديد القادر، عدا القائد أبي شجاع ابن لبون⁽¹⁷⁾، الذي انبرى أمامه قائلاً لقد خلعت نفسك بما قلت، وبما أزمعت عليه وعولت⁽¹⁸⁾ فعلم القادر أن الأمر قد دبر بليل، وأن لا سبيل للمماطلة، وكان الوضع في طليطلة قد آل إلى الفوضى، فاضطربت شوارع المدينة وقامت الثورة فلم يجد القادر بدا، من الفرار إلى حصن من حصونه، وهو حصن وبدة⁽¹⁹⁾، وألقى أهل طليطلة أنفسهم بلا أمير، ولا حكومة تقي المدينة شر الفوضى، وظل أهل طليطلة بعده أياماً يقول ابن بسام: "كالسائمة المهملة نام راعها، وأكبثت مراعيها... ليس عليهم أمير ولا فيهم إلى الصواب مشير"⁽²⁰⁾. وعندئذ انتبه بعضهم إلى بعض، وأخذوا يتشاورون لأبي من ملوك الطوائف يصرفون إليه هذا الأمر، ويلقون إليه أيديهم، وكان من بينهم رجل يدعى أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوسي⁽²¹⁾ أشار عليهم نقدم عمر بن الأفطس أمير بطليوس. فانجازوا إلى رأيه، بعد أن أقنعهم بصفاته التي تليق بإدارة بلادهم لتجاوز محتهم.⁽²²⁾ وعلى عجل بعثوا للمتوكل رسلاً يدعونه للقدوم إلى طليطلة، ليسلم مقاليد الحكم بها، ومع هذا الحاكم الجديد لم يتحقق ما كان يصبوا إليه أهل طليطلة من الاستقرار والأمن، وتنمية بلادهم، والسبب في ذلك أن القائمين على شؤون البلاد يومئذ مع المتوكل لم يهتموا بجدية في مصالحهم واستقامة أمورهم.⁽²³⁾

والجدير بالذكر أن المتوكل لم يكن يهيمه إعادة الاستقرار إلى طليطلة ولا إعادة هيبتها كإمارة قوية في هذه الثغور، فاستجابته لأهل طليطلة، كان بدافع تفويت الفرصة على المعتمد بن عباد الذي كان همه وقتذاك السيطرة على الممالك المجاورة له، ومنها مملكة طليطلة، التي تسبب حاكمها ومنهم المؤمن في قتل ابنه سراج الدولة، لم يكن هذا فحسب فقد يضاف إلى هذه الاعتبارات عامل التعاطف مع أهل طليطلة الذين كانوا يشاركونه المعاناة من سطوة ألفونسو السادس الغالب على أمر حاكمهم القادر بالله، بالإضافة إلى عامل التحدي لألفونسو الذي كان قد استولى على قورية⁽²⁴⁾ التي تعد من الخطوط الدفاعية المتقدمة لمملكة بطليوس ومفتاح الغرب كله إلى طليطلة.⁽²⁵⁾

ثانيا: سياسة ألفونسو تجاه مملكة طليطلة :

أمام هذه المخاطر التي أحاطت بالقادر بن ذي النون، فكر كعادته بالاستعانة بألفونسو السادس، وكانت هذه عادة ملوك الطوائف حين يشتد بهم الأمر يلجؤون إلى أعدائهم من النصارى ويقدمون أموالهم لاستخدامهم ويكشفون بذلك عوراتهم وعورات إخوانهم ويتنازلون أحيانا عن جزء من أراضيهم مقابل إذلال إخوانهم من ملوك الطوائف.

وعلى أية حال فقد كتب القادر بن ذي النون بعد خروجه من مدينة قونقة إلى ألفونسو ملك قشتالة يذكره بسالف الود، الذي كان بينه وبين جدّه المأمون، حين لجأ إليه لما غلبه أخواه على الملك فأجاره إلى أن عاد إلى الملك⁽²⁶⁾ فاستجاب ألفونسو لدعوته وهو يضم الغدر، ويتحين كل فرصة سانحة للإنقضاض⁽²⁷⁾، وهذا أمر طبيعي لأن جميع من تداولوا على الحكم في بلاد النصارى كان همهم الوحيد هو طرد العرب المسلمين من شبه الجزيرة، إلا أنهم كانوا يتدرجون في تحقيق ذلك بإضعاف الإمارات واقتطاع الثغور كلما كان ذلك ممكنا.

وسار ألفونسو السادس مع القادر نحو طليطلة في كتيبة من قواته، وكان المتوكل بن الأفطس لا يتوانى في اقتناص كل من يستطيع اقتناصه من أسلاب، وأثاث وفراش وأنية، وأسلحة وكتب، وبيعت بها إلى بطليوس،⁽²⁸⁾ ولم يبق فيها كما أسلفنا شيئا ذي بال، ولم ينجز شيئا خلال الفترة التي أقامها بطليطلة للتصدي لمطامع ألفونسو السادس، وهذه لمحة من ابن بسام حول انشغالات عمر المتوكل في طليطلة وهي أوصاف يقف الباحث أمامها محتارا، إذ كيف يعقل أن هذه الأجزاء من بلاد المسلمين كانت وقتذاك تمر بحالة من الاضطراب والفوضى التي لا حد لها، والعدو هناك فاغراه ليلتهم القرض منها والقضيض، ومع هذا وذلك فإن عمر المتوكل عوض أن يعمل على توحيد بلاده مع هذه البلاد التي أصبح فيها مطلق التصرف، جنح إلى العبث والقبح من الأعمال يقول ابن بسام: "والمتوكل بها طريح جنان، طريح أكواب ودنان، مكبا على قمش ما نحتة المحنة، وتجاقت عن انتهابه الفتنة، من فرش فخم، وسرادق ضخم، وأنية وكتب، وصعد من آلة الملك وحبب حتى اجتمع عنده من خبث زيرتها، وغناء غمرتها، مع ما أذابوا له صدر مقدمه من شحم سنامها، وأفاضوا من بردها وسلامها، جملة علمته الجلوس في الصدر وأرته الفرق بين الخل والخمر"⁽²⁹⁾.

قد بادر الملك ألفونسو السادس إلى التوجه نحو القادر بن ذي النون، واتفق معه على تقديم كافة العون والمساعدة، وطرده الأمير الأفطس، من طليطلة وإعادته إلى عرشه على أن يتخلى له عن السيادة على هذه المدينة متى استعاد له مدينة بلنسية⁽³⁰⁾. ونظرا لحاجة القادر للحصول على موافقة ألفونسو السادس فقد تعهد له فوق ذلك بأن يدفع جميع تكاليف الحملة العسكرية وأن يسلمه كل ما كان قد بقي من موجودات وكنوز العائلة، وحتى يبين صدق نيته وعزمه، قدم له رهين ذلك حصنين لهم أهمية عسكرية واستراتيجية عظيمة، وحسب ابن الكردبوس فإن ألفونسو هو من طلب ذلك حين قال للقادر: "أعطني حصن سرية وحصن قورية رهنا"⁽³¹⁾.

ويستنتج من هذا الاتفاق إلى "المدى الذي وصل إليه ضعف يحيى القادر واستهتاره ، وإلى أي حد تسلطت عليه أنانيته وشهواته وأحقاده، مدفوعا بحقده الأعمى على معارضيه المتشددين من أهل طليطلة وبرعيته ، ما دفعه إلى التآمر على مواطنيه، ورعاياه والتعهد بتسليم عاصمتهم، الحاضرة الأندلسية الكبيرة، على الملك الإسباني".⁽³²⁾

وبعد أن تم العقد بينهما وقد حقق فيه ألفونسو ما كان يصبوا إليه ، وكان شعاره إذًا هو الاستزادة من الثغور والأموال. وعلى أي حال فقد باشر ألفونسو مهامه العسكرية، وانطلق نحو طليطلة وآلة الموت تتقدم لا تلوى على شيء، تنشر الخراب والرعب، وتحطم وتدمر، وأهل طليطلة في هلع شديد يجوبوا شوارعها التماسا للأمان، وفي غمرة المحنة، أحس عمر المتوكل بالخطر، ولم يكن في نيته المقاومة والتصدي للخطر⁽³³⁾، فإن الطليطليين الذين علقوا عليه الأمل في الذود عن بلادهم فقد فر بنفسه تاركا أهلها لمصيرهم المجهول" بين ناب الطاغية أذفونش وظفره يقدم لهم نار الفتنة عن جمرة ويريمهم الموت في أهول صورة⁽³⁴⁾ كان ذلك سنة 473 هـ / أفييل 1080. وكانت خطة ألفونسو هذه المرة، أن يوجه إلى أهالي طليطلة ضربة موجعة فشدد عليهم الحصار، وفرضت عليهم الرقابة حتى لا يدخل عليهم أو يخرج منهم أحد، حتى نفذت الأغذية والمؤن وبكت عوائلهم وصغارهم فاضطروا إلى فتح أبواب المدينة.⁽³⁵⁾

ودخل ألفونسو السادس مدينة طليطلة، يتبجح بين يدي القادر، أملا في الوصول إلى ذخائره وأسلابه⁽³⁶⁾ وقبل أن يسترجع القادر أنفاسه أمره بإحضار ما اتفقا عليه من أموال فراح القادر يتزل كل ما وجده في القصر الملكي من تحق وثروات وجميع ما خلف آل ذي النون، فلم يقبلها ألفونسو وزاد على ذلك في إحضار المزيد من النفائس الموروثة عن أبيه وجده، فلم يف بما قاطعه عليه، فسأله أن ينظر فيه ويجعله بين يديه فقال أعطني حصن قنالس (Canales)⁽³⁷⁾ رهنا، فأعطاه إياه، ولما أصبح هذا الحصن في حوزته، بعث إليه من يثق فيهم من جنوده، أما هو فقد يم نحو قشتالة وبحوزته الغنائم، والنفائس⁽³⁸⁾ التي قدمها القادر، ثمنا لإعادته إلى بلاده طليطلة.

والجدير بالملاحظة، والاعتبار في سير علاقة ألفونسو السادس مع ملوك الطوائف بوجه عام، ومع القادرين ذي النون بوجه خاص، هو أن استخدام ألفونسو لمؤازرة القادر يحتاج في معاضدته كان يطلب منه مقابلا من المال، ولما كانت نية ألفونسو إبقاء هذا الأمير البائس على حالة من الزرية بين رعيته، كان لا يكلف نفسه في إعادة شؤون البلاد إلى وضع يسمح للقادر بالحكم في ظروف يسودها الأمن الاستقرار، لقد كان ألفونسو متعمدا في ذلك لإبقاء الوضع على حاله حتى يكون قابلا للاشتعال مرة أخرى، ويكون حضوره بينهم أمرا محتوما، إلى أن تستفرغ خزائهم وبالتالي تسهل السيطرة عليهم.

ألم يحدثنا عبد الله الزيري عن إمارته غرناطة حين هم ألفونسو السادس لمهجمتها تحت تأثير ابن عمار وعندما قابله عبد الله وبين له استعداد له لدفع المقابل دون اللجوء إلى القوة، أدرك ألفونسو حينها بأنها حيلة دبرت له وقال: "هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة، وإن لم تحصل البلدة، وأي فائدة لي في إعطاء بلدة من واحدة لآخر إلا تقويته على نفسي؟ وكلما وقع الثوار وقع بينهم التنافس، كان لي أفاد" فأتى على نية أخذ مال الفريقين، يكسر رؤوس بعضهم ببعض، ولا كان أيضا في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه. فإنه عمل في ذلك حسابا أن قال: "أنا من غير الملة وكل الناس يشأنني فبأي وجه أطمع في أخذها؟"

إن كان من باب الطاعة فأمر لا يمكن وإن كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه إن صارت إليّ ولو صارت، لم تمسك إلا بأهلها، ثم لا يؤمنون! ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ولكن الرأي كل الرأي، تهديد بعضهم ببعض وأخذ أموالهم أبداً، حتى ترق وتضعف، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت وتأتي عفوا كالذي جرى بطليطلة إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم مع اندبر سلطانها، وصارت إلي بلا مشقة".⁽⁴⁰⁾

وبالفعل فقد ظل الملك القشتالي بهذه السياسة التي كان يرى فيها أهون السبل وأجدرها للوصول إلى هدفه الأسمى ألا وهو الاستلاء على المدن الاستراتيجية الواحدة بعد، الأخرى. وتجددت هذه السياسية في علاقته مع القادر بن ذي النون فهو كلما أعطي الأموال طلب المزيد، وإذا عجز القادر بادر ألفونسو إلى غزو أحواز طليطلة وتخريب أراضيها وزروعها، لقد كانت هذه سياسته مع القشتاليين، فأما تصرفاته مع رعاياه فقد كانت على درجة من الإساءة فلقد عمد إلى نشر الفرقة بينهم، ظنا منه أنه في وحدتهم خطراً على سلامة عرشه، وحتى يقمع الأحرار والمحافظين الذين كان يؤلمهم خضوع بلادهم إلى النصراني، كان يعطي المناصب العليا في حكومته وإدارته إلى المغامرين والانتهازيين ممن عرفوا بعدائهم للفتات المحافظة⁽⁴⁰⁾، وكثيراً ما كان يثير سفلة القوم، وعوامهم ضد الأعيان والفقهاء وقد تحدث ابن بسام عن هذا السلوك الذي سلكه القادر بن ذي النون "وأخذ بن ذي النون أهل طليطلة لحين استقراره فيها بفك تلك المعازل وأداء ما كان ضمن لأدفوش من الأموال الجلائل، فضرب مدبرهم بمقبليهم وولى آخرهم كبر أولهم حتى طمع فقيرهم في غنيمتهم، واجترأ ضعيفهم على قويمهم، وأصبح الرجل منهم يرتاع من ظله، ويلتفت وإنما هو بين أهله".⁽⁴¹⁾

ظل ألفونسو السادس حريصاً على إبقاء القادر على عرش طليطلة، لأنه كان في نظره الأداة الطيبة التي يستطيع بواسطتها ضمان إبقاء طليطلة مهيأة لالتهايمها. فهو قد عقد العزم بصفة نهائية على ضمها إلى أملاكه، ويظهر ذلك منذ مخابرة قداية الباب لإعادة كرسي رئيس أساقفة إسبانيا إلى طليطلة، ذلك المنصب الذي فقدته الأسقفيات الإسبانية منذ مدة طويلة⁽⁴²⁾.

لقد شجعه على ذلك كما أسلفنا، انقسام أهل المدينة على أنفسهم بتشجيع من القادر نفسه، فضلاً عن المواقف المتخاذلة التي ظهرت بها الإمارات الإسلامية حيال أطماع ألفونسو السادس وجنباياته على مملكة طليطلة، رغم صرخات وأنين أهالي طليطلة، ووعود أن يقدم هؤلاء يد العون إلى الإمارة المحتضرة، قام ابن عباد بإرسال وزيره ابن عمار إلى ألفونسو السادس ليعقد معه معاهدة يتعهد فيها ملك قشتالة بأن يعاون ابن عباد بالجند ضد سائر أعدائه من أمراء المسلمين، كما يتعهد ابن عباد مقابل ذلك بأن يقدم له جزية معتبرة، ويتعهد له بأن يتركه مطلق التصرف في طليطلة، وألا يتعرض له بأي أذى⁽⁴³⁾. ولم يقف إلى جانب القادر بن ذي النون في محنته سوى عمر المتوكل بن الأفضس أمير بطليوسا الممتشبت بزعمته البربرية والإسلامية الذي سارع إلى إنجاد إخوانه في طليطلة، فأرسل قواته تحت قيادة ابنه الفضل حاكم ماردة، ونظراً لعدم تكافؤ القوى لم تنجح القوات الإسلامية في ترجيح كفة النصر لصالحها⁽⁴⁴⁾.

وفي هذه المرحلة كان ألفونسو السادس قد شرع في تنفيذ الحصار النهائي لضيم مدينة طليطلة إلى المملكة النصرانية وذلك في خريف سنة 477 هـ / 1085 م وظل أهالي طليطلة داخل الأسوار يانون تحت وطأة الجوع، ومما زاد الوضع سوء هطول الأمطار الغزيرة التي تسببت في سقوط المباني وانهباء بعض التحصينات مما قضى على قدرة المقاومة والصمود وعلى كل أمل في النصر⁽⁴⁵⁾. ومع ذلك فقد استمات السكان في الدفاع عن مدينتهم، حتى ما بقي معهم من وسائل المقاومة إلا ما تلهج به ألسنتهم من طلب المساعدة والتوسط عند إخوانهم من أمراء الطوائف، فشكّلوا وفدا بقيادة القادر بن ذي النون، وتوجهوا نحو قصر المأمون أين كان يقيم ألفونسو السادس، استقبل الوفد من قبل حاشية الملك ببرودة وجفاء، وحاولوا منعهم من مقابلته، بدعوى أنه نائم ولم يفلحوا في مقابلته إلا بعد أن توسط لهم وزيره المستعرب ششكند Sisnando Davided الذي كان يشغل وظيفة أمين السر الخاص لألفونسو وأدخلهم غرفة سيده⁽⁴⁶⁾. وقد سجل ابن بسام تفاصيل هذا اللقاء ونحن نورد في هذا البحث لما فيه من أهمية وعظمة يقول ابن بسام: "فأدخل على أدفونش يومئذ منهم جماعة فوجدوه يمسح الكرى من عينيه نائر الرأس، خبيث النفس، وجعلوا ينظرون إليه وهو يضغثثغامة رأسه فما نسو دفر أطماره، ودرن أظفاره ثم أقبل عليهم بوجه كرية، ولحظ لا يشكون أن الشرفيه وقال لهم: إلى متى تتخادعون وبأي شيء تطمعون؟ قالوا: بنا بغية، ولنا في فلان وفلان أمنية وسموا له بعض ملوك الطوائف فصفق بيديه، وتهاتف حتى فحص برجليه ثم قال: اين رسل ابن عباد؟ فجاء بهم يرفلون في ثياب الخناعة، وينبسون بالسنة السمع والطاعة، فقال لهم: منذ كم تحومون علي، وترومون الوصول إلي؟ ومتى عهدكم بفلان وأين ما جئتم به لا كنتم ولا كان؟ فجاءوا بجملة ميرة، وأحضروا بين يديه كل ذخيرة خطيرة، ثم زاد أن ركل ذلك برجليه، أمر بانتهابه ولم يبق ملك من ملوك الطوائف إلا أحضر يومئذ رسله، وكانت حاله حال من كان قبله، وجعل أعلاجه يدفعون في ظهورهم، وأهل طليطلة يعجبون من ذل مقامهم ومصيرهم فخرج مشيختها من عنده وقد سقط في أيديهم وقد طمع كل شيء فيهم"⁽⁴⁷⁾.

وقد خرج الوفد من عنده لم ينل من مطالبه شيئا، بل أشبعهم ألفونسو ذلا ومهانة، وبعد ثلاثة أيام من هذا اللقاء خلوا بينه وبين البلد⁽⁴⁸⁾ ولم تبق أمام القادر بن ذي النون أي محاولة للمناورة، أو الإرجاء، ولم يلبث أن سلم طليطلة لألفونسو السادس ملك قشتالة، سنة 478 هـ / 1085 م، بشروط كان قد تعهد بها وهي تسليمه مدينة بلنسية ليستقر بها وتأمين أهل طليطلة في الأرواح والأموال، وأن يخير المسلمون من سكانها بين البقاء والرحيل، فمن أحب الخروج لم يمنعه ومن أحب المقام لم يلزمه سوى أداء الجزية على عدد ما عنده من الأشخاص وإن رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقاردون تعرض عليه لا في كثيره ولا في قليله فعاهدتهم على ذلك وأعطاهم صفقة يمين، وأقسم لهم أنه لا يغدر في ذلك ولا يهين⁽⁴⁹⁾. وكان أن وفي للقادر بأن أرسل معه حاميه توصله إلى بلنسية، واستقر بها إلى سنة 485 هـ / 1092 م وعندما تملك ابن عائشة مرسية⁽⁵⁰⁾ استدعاه أهل بلنسية وعرضوا عليه مدينتهم، فأقبل إليها نائبه في جيش من اللمتونيين. ولأذ القادر بن ذي النون بالفرار ولم يتمكن من الخروج من المدينة، فاختم بعض الدور الخالية، فقبض عليه وسبق إلى القاضي ابن جحاف فأمر بقتله يقول ابن الخطيب: "تولى ذلك فتى من بني الحديد القليل بطليطلة، وطيف برأسه واحتوى ابن جحاف على ما كان له وطرح جثته في سبحة فواراه رجل احتسابا وصدقة، ودفن دون كفن فانقطعت مدته على هذا السبيل"⁽⁵¹⁾.

أما أهل طليطلة فقد أصبح مصيرهم بيد ألفونسو السادس لا حول لهم وقوة وقد استسلموا وانحطت معانوتهم، وانكسرت مشاعرهم، وقد بذل الوزير ششكند جهده ليخفف عنهم هذا الوقع الذي أنزلهم من عزهم إلى حضيض من الذل والهوان، فاستمال بهذه السياسة قلوب الكثيرين منهم، وأقبل بعض العامة إلى التنصر ونصح هذا الوزير قائده أن يلتزم الاعتدال، والحلم في معاملة هؤلاء المستسلمين، وما جاء في النص الذي أورده ابن بسام حول كلام ششكند لسيده ألفونسو السادس: "أخض جناحك لأهلها، واستجلب جاليتها بما تمد من ظلها، ولا تلح على ملوك الجزيرة فلست تستغني عنهم، ولا تجد عمالا أطوع منهم، فإنك إن أبيت إلا الإلحاح عليهم، والتسرع بالمكروه إليهم نفرتهم عن ذلك وأحوجهم إلى مداخلة سواك."⁽⁵²⁾

وهكذا سقطت الحاضرة الأندلسية، وأفل نجمها إلى الأبد وهي المدينة التي زحف إليها طارق بن زياد في كتيبة من الفاتحين، وأخضعها لسنة تسعين للهجرة، وظلت مدة ثلاثمائة سنة وثمانية وثمانين من الأعوام⁽⁵³⁾.

وكان ممن تحسروا من الشعراء على سقوط طليطلة، وهو في حقيقة الأمر قد وقف متخاذلا وكان الأجدر به أن يدعوا بقية ملوك الطوائف إلى التلاحم ونبذ الأناية والفرقة، والاصطفاف تحت قيادة موحدة وتحرير بلادهم من العدو ومما قاله الشاعر عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بـ(ابن العسال) في سقوط طليطلة⁽⁵⁴⁾:

حثوا رواحلكم يا أهل أندلس	فما المقام بها إلا من الغلط
الثوب ينسل من أطرافه وأرى	ثوب الجزيرة منسولا من الوسط
ونحن بين عدولا يفارقنا	كيف الحياة مع الحيات في سفظ

وكان لوقوع سقوط طليطلة أثر كبير لدى ملوك الطوائف، وقد شعروا بجديية الموقف وقد علموا أن الدائرة عليهم وتشبثوا جميعهم بداعي الجهاد، فاجتمعوا جميعا ولأول مرة إلى اجتماع الكلمة، ونبذ الشقاق، وإشرأبت أعناقهم نحو إخوانهم المسلمين المرابطين يطلبون المدد، والإغاثة وبدخول المرابطين شهدت الأندلس نقطة تحول في سير الأحداث.

الهوامش:

1. تجمع الكتب العربية من أن الذي خلف المأمون هو حفيده يحيى الملقب بالقادر، أما الرواية الإسبانية فتقول بأن الذي خلفه هو ولده هشام القادر وهذا غير صحيح إذ يفهم من كلام ابن خلدون وابن الخطيب أن هشاما ولد المأمون توفي قبل أبيه، ابن الكردبوس، تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط، نسان جديان تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد 1965-1966 هامش رقم 4 ص: 78 ، عبد المجيد نعني، الإسلام في طليطلة ، دار النهضة العربية ، ص: 283
2. ابن بسام الشنتريني ، الذخيرة في محاسن اهل الجزيرة ، الجزء 1 تحقيق سالم مصطفى البديري ، دار الكتب العلمية ، بيروت، ص: 151
3. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 79
4. عبد الله عنان، دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، 1380هـ/1960 ص: 107
5. عبد المجيد نعني، المرجع السابق، ص: 277 عبد الله عنان، المرجع السابق ص: 107
6. ابن بسام الشنتريني ، المصدر السابق ، ج 1 ص: 151
7. المصدر نفسه، ف4 ، ج 1 ، ص: 151
8. عبد المجيد نعني، المرجع السابق، ص: 277
9. أبو بكر بن عبد العزيز: هو أبو بكر بن محمد بن مروان بن عبد العزيز القرطبي، كان أبوه أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز المشهور بابن درويش وزيراً للأمير عبد العزيز العامري صاحب بلنسية وزيراً لابنه من بعده عبد الملك المظفر بن عبد العزيز، وبعد وفاة هذا الوزير سنة 456 هـ/ خلفه في الوزارة ابنه أبو بكر عبد العزيز المذكور هنا في المتن، فلم يمكث في منصبه طويلاً حتى سقطت بلنسية في يد المأمون بن ذي النون الذي أقره في منصبه ثم عينه نائباً عنه في حكم المدينة بعد أن عزل أميرها عبد الملك المظفر ونفاه إلى إحدى قلاعها في كوكنة، ويفهم من هذا النص أن هذا الوزير استمر في حكم بلنسية باسم بني ذي النون إلى أن مات المأمون سنة 467 هـ / 1075 م فانتزعت فرصة ضعف القادر واضطراب الأوضاع في طليطلة، وأعلن عن انفصاله ببلنسية، وفي نفس الوقت تحالف مع ابن هود أمير سرقسطة، وزوج ابنته على سبيل المعاضدة والتأييد، وطمعاً في ضم بلنسية إلى مملكته حين يكون ذلك ممكناً، وظل هذا الوزير على رأس مملكة بلنسية إلى حين وفاته سنة 478 هـ / 1085، ابن عذاري المراكشي ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء 3 تحقيق ج ، كولان ، وليفي بروفنسال ، ص: 266
10. Ballestoros Antonia, Historia de Espana y Su influencia en la Historia Universal Becelone 1934-1950 Tome II p : 324.
11. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص: 81؛ عبد المجيد نعني، المرجع السابق ص: 279

12. قونية: وصحتها كوتكه Cuenca وكانت من أمنع الحصون في منطقة الثغر الأوسط، وهي من أعمال سنتبرية ينسب إليها إبراهيم بن محمد بن خيرة، ابن الكردبوس، المصدر السابق هامش رقم 1 ص: 81 ياقوت الحموي، معجم الأندلس والمغرب، تحقيق محمد حقي، مطبعة عين أسردون بني ملال 2011ص: 117.
13. عبد الله عنان، المرجع السابق ص: 108.
14. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص 80: عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص: 280
15. المصدر نفسه، ص: 82.
16. المصدر نفسه ص: 82.
17. ابن ليون: هو شجاع أرقم بن ليون، بذكر ابن الأبار أنه كان وليا على وبذة في مقاطعة كوكنة إحدى حصون الثغر الأذني في طليطلة، ولقد اتصل تاريخ بني ليون بأسرة بني ذي النون حكام الثغر الأذني طليطلة أيام ملوك الطوائف وفي هذا القول ابن حيان: "بلغني أنه لما مات الظاهر إسماعيل بن ذي النون كان حملة دولته ورؤوس جلته، الحاج ابن محقور وابن ليون، وابن سعيد بن الفرج وكان أكد ما عهدته إلى ابنه يحيى الملقب بعده بالمأمون الاقتداء بهديهم والانتهاج إلى رأيهم وقد ذكر ابن الأبار أسماء عدة وهم إخوة إلى شجاع أيام يحيى القادر وهم أبو وهب عامر بن ليون وكان ضابطا لقصر بلنسية وأبو شجاع أرقم حاكم وبذة، وأبو عبد الله بن ليون حاكم لورقا وأبو عيسى من ليون، ابن الأبار القضاعي، الحلة السراء، ج 2 دار الكتب العلمية، بيروت، ص: 169 ابن بسام المصدر السابق ج 1 ص: 113
18. ابن الكردبوس، المصدر السابق ص: 83
19. وبذة، بالفتح ثم السكون وذال معجمة، مدينة من أعمال شنت برية بالأندلس، ياقوت الحموي، المصدر السابق ص: 141
20. ابن بسام، المصدر السابق، ج 1 ص: 158
21. أبو محمد يوسف بن القلاس البطليوس: يقول عنه ابن بسام: "أحد عفاريت الظلال، وأكله الأموال، من رجل أجرأ الله على دم وهو أيمن من صافر وأجسرهم على ركوب محرم وهو أضعف من لحظ فاتر، نهبت تلك الفتنة على قدره دفع عدم الرجال صوته بذكره، فهبت ريحه شمالا وصبا واتخذ سبيله في البر والبحر عجا، فعرض عليهم بصاحبه المتوكل عمر بن المظفر ابن الأفتس وأعرب لهم عن لين مكسرة وضيق المسافة نظره واشتغاله باللذات عن أكثره" ابن بسام، المصدر السابق، ج 1 ص: 159
22. المصدر نفسه، ح 1، ص: 159.
23. إبراهيم بن عطية، تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي، دراسة تاريخية حضارية، ص: 113
24. قورية بالضم ثم السكون، والراء مكسورة وياء خفيفة، مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف بينها وبين سمورة مدينة الإفرنج ياقوت الحموي المصدر السابق ص: 117
25. شريفة رحماني، العلاقات السياسية بين الطوائف الأندلسية والبربرية في جنوب الأندلس في عصر الطوائف القرن الخامس الهجري، الحادي عشر الميلادي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 2005 ص: 123-124

26. ابن الخطيب لسان الدين ، أعمال الاعلام في من بوع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، دار الكتب المكشوف بيروت ط2، 1956 ص:181.
27. عبد الله عنان، المرجع السابق، ص:108
28. ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص:160 ؛ عبد الله عنان، المرجع السابق. ص:108.
29. ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص:160.
30. ابن الخطيب، المصدر السابق ص:181.
31. المصدر نفسه ، ص:181.
32. ابن الكردبوس، المصدر السابق ص:83.
33. عبد المجيد نعني، المرجع السابق ص:290.
34. ابن الكردبوس، نفسه ص:83.
35. ابن بسام ، المصدر السابق ، ج1 ص:162.
36. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص:181.
37. Canales:تطلق على عدة أماكن في مختلف أنحاء إسبانيا وهو جمع قناة أو قتال والمقصود هنا هو قرية قتال التي هي في شمال طليطلة، على الحدود القشتالية.
- Pascual Madoz, Diccionario George Filo, Historica de Espana y Sus pose Siones de Ultramar p : 389.
38. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص:83-84.
39. عبد الله بن بلقين ، كتاب التبيان ، تحقيق أمين توفيق الطيبي ، منشورات عكاظ ، الرباط ، 1995 ص:10.
40. عبد المجيد نعني، المرجع السابق ص:295.
41. ابن بسام، المصدر السابق، ج1، ص:164.
42. إبراهيم بن عطية. المرجع السابق ص:116.
43. عبد الله عنان، المرجع السابق ص:109.
44. ارزقي فراد.القوى المغربية في الاندلس في عهد الطوائف ، القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ص:98.
45. عبد المجيد نعني، المرجع السابق ص:301.
46. المرجع نفسه ص:302.
47. ابن بسام، المصدر السابق ،ج1 ص:167.
48. ابن الخطيب أعمال الأعلام، ص:182.
49. ابن الكردبوس، المصدر السابق ص:85.
50. مرسية، بالأندلس وهي قاعدة تدمير بناها الأمير عبد الرحمان بن الحكم، واتخذت داردار العمال وقرار القواد وكان الذي تولى بنائها وخرج العهد إليه في اتخاذها جابر بن مالك بن لبيد، وكان تاريخ الكتاب يوم الأحد لأربع خلون من ربيع الأول سنة عشر ومائتين الحميري، الروض المعطار في خبر الاقطار، تحقيق: إحسان عباس ،دار الكتاب ، بيروت، ص:539.
51. ابن الخطيب، المصدر السابق، ص:182.

52. ابن بسلام، المصدر السابق، ق4 ، ج1 ، ص:168.
53. ابن الكردبوس، المصدر السابق، ص:85.
54. ابن سعيد الغرناطي، المغرب في حلى المغرب، الجزء الثاني، تحقيق : خليل المنصور ، دار الكتب العلمية ، 1417هـ/ 1997 م ، ص:21.